بزوغ نجمة من سوريا

يكاد التاريخ الروماني يغيب عن القارئ العادي قرابة نهاية القرن الأول الميلادي. إذ عندما غابت عن المسرح تلك الشخصيات التي خلدها شكسبير في مسرحياته مثل يوليوس قيصر وأنطونيوس وكليوباتره وتبعتهم شخصيات سيئة السمعة مثل نيرون، لم يبق سوى شخصيات قليلة فازت بالخلود. فأصبحت قصة روما بعد ذلك مادة لا يهتم بها سوى الاختصاصيون. وهكذا أسدل الستار على عصر من عصور الإمبراطورية يمكن اعتباره بحق عصر روما الذهبي. فأثناء حكم الأنطونيين كما يدعون عادة أنه يغطي السنوات مابين 96 و 180 ميلادية أي معظم القرن الثاني وصلت الإمبراطورية الرومانية إلى أوج اتساعها وازدهارها. وليس هناك أي مثل في التاريخ القديم عن وجود دولة شملت حدودها العالم المعروف بأجمعه. والجار الوحيد للإمبراطورية الرومانية الذي كان يعتبر منافساً وليس تابعاً لها هو مملكة بارثيا (الفرس) والتي امتدت أملاكها في مناطق آسيا الوسطى. وبكلمة أخرى كانت حدود الإمبراطورية الرومانية هي حدود البلدان المتحضرة، ففي عصر الأنطونيين كان من السهل السفر من نهر التايبر إلى نهر النيل أو من منطقة ما بين النهرين إلى المحيط الأطلسي دون ترك المنطقة التي تحكمها القوانين الرومانية والتي تنعم بالأمان في ظل السلم الروماني.

إن التماسك والالتحام السياسي الذي كانت تتمتع به تلك الإمبراطورية وتلك المساحات الشاسعة لم يكن ليحدث لولا وجود أولئك الحكام المتتالين والمقتدرين والمفعمين بحب العمل للمصلحة العامة. تلك الأسرة التي لم تكن تعتمد في ديمومتها على العلاقات الدموية أي القرابة المباشرة بل على عملية التبني؛ فقد جرت العادة أن يختار كل إمبراطور وريثه الذي كان يتبناه بعد ذلك ويتخذه ولداً له. وكان الرجل المختار عادة في سن الرشد، تكشف مواهبه عن صفات تؤهله لاحتلال ذلك المركز السامي. وفي أثناء حياة والده بالتبني كان هذا الشاب يحمل لقب قيصر أي الشخص الذي رشحه الإمبراطور ليكون إمبراطوراً فيما بعد. وقد ظل هذا النظام متبعاً بنجاح حتى زمن ماركوس اوريليوس، ذلك الإمبراطور الذي

اشتهر بكونه من الفلاسفة الرواقيين[1]. وقد سمح هذا للعاطفة الأبوية بالتحكم في أحكامه، فاختار ابنه كومودوس خليفة له مبتعداً بذلك عن الأعراف القديمة التي اتبعها من سبقه. وكان هذا الابن مفتقراً لقوة الشخصية الضرورية لمنصبه، وقد أثر هذا المنصب وسموه في الشاب، فأصبح متعجرفاً، ووقع في تلك الحالة من القلق والشك التي يمتاز بها الطاغية، الأمر الذي قرب النتيجة التي كان يخشاها. فقد اغتيل هذا الإمبراطور في أواخر ليلة رأس السنة لعام 192م.

لقد كان لحادث الاغتيال وقع وصدمة للاستقرار في روما. ولكن الإمبراطورية كانت متينة البنيان فلم يهتز كيانها. إذ أتت أسرة جديدة إلى الحكم بعد فترة قصيرة من الفوضى. وقد أعادت هذه الأسرة إلى الأذهان ذكرى عصر الأنطونيين، فالأباطرة الجدد الذين استولوا على الحكم بشكل شرعي خيالي، احتفظوا لأنفسهم حتى بالأسماء والأبهة واستأنفوا أو أظهروا أنهم قد استأنفوا عصر الازدهار والتقدم في روما. ولكن سرعان ما ظهرت بعض مظاهر خيبة الأمل، فقد وقفت الحضارة الرومانية على حافة الهاوية التي كان قد قدر لها أن تسقط فيها رغم كل المحاولات التي بذلت لتفادي ذلك. فقصة السنوات ما بين 193 و 235م التي يبحثها هذا الكتاب هي قصة روما الإمبراطورية التي كانت لا تزال تتمتع بالعظمة قبل سقوطها الذريع في الهاوية. وفي نهاية ذلك القرن نهضت الدولة الثانية من مهاوي الخراب تحت حكم بعض الأباطرة الأقوياء مثل ديوقلسيان وقسطنطين الكبير.

لم يكن سبب اهتمام العالم بالتاريخ الروماني التحول الذي حدث في ذلك التاريخ ولا السقوط الذريع للعظمة الرومانية فحسب، بل ذلك الدور الذي أدَّته النساء في إدارة شؤون الإمبراطورية وما ظهر من عبقرية أولئك النسوة. فالأسرة التي حكمت روما بعد اغتيال كومودوس والتي كان أولها سبتموس سيفيروس، قدمت لروما خمسة أباطرة استغرق حكمهم ثلاثة أجيال. ولكن منجزات تلك الأسرة وما قدمته للإمبراطورية مدينة لأعمال ومنجزات قامت بها أربع نسوة شهيرات من الأسرة المالكة وهن: الأختان جوليا دومنا وجوليا ماسيا، وبنتا هاتين

١- الرواقيون: وهم أتباع زينون - فيلسوف يوناني (342 - 270 ق.م) كان يعمل أصحابه في رواق مزخرف في أثينا، ثم سمي أصحابه بالرواقيين. وقد كان زينون معاصراً لابيقور ومعارضاً له في تعاليمه. فبينما يرى أبيقور أن الغاية من الحياة هي الوصول إلى أكبر لذة ممكنة للعمل، وأنه يجب إحياء الشهوة وإرواؤها، بينما كان زينون يرى أنه يجب ضبط النفس وقمع الشهوات. والغربيون الآن يطلقون «رواقي» على من اعتاد أن يقابل الأشياء بهدوء وطمأنينة على الرغم مما يحيط بها من خطر وآلام.

الأختين وهما سهيمة وماميه ويدعوهن جيبون بالأميرات السوريات. وقد كانت هؤلاء الأميرات نشيطات ليس في الشؤون السياسية فحسب بل في الشؤون الدينية أيضاً. وقد عشن في الفترة التي سبقت اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية بما يقارب مئة عام. وكان يدغدغ عقولهن ذلك الحكم بالقضاء على الفروق الدينية في الإمبراطورية الرومانية، وذلك بالسعي لجعل جميع أفراد الإمبراطورية يعتنقون نوعاً من التوحيد مؤسساً على بعض الأفكار التي كانت سائدة في معبد الإله إيلاجابال Elagabal في حمص في سوريا، حيث ولدت الأختان الكبريان. وقد أوحى لهن بهذه الفكرة لما كن يتمتعن به من اتساع أفق الرؤية، الأمر الذي كان نادراً في تلك الأزمنة. وقد كان هدفهن القضاء على تلك النزاعات القائمة بين الفرق والمذاهب الدينية المتعددة والمتنافسة وإحلال التناسق والتناغم بين تلك المذاهب حتى يستطيع كل مذهب أن يقوم بدوره في البحث عن الحقيقة الخالدة. ولو نجحت هؤلاء النسوة في عملهن هذا لكانت قد تغيرت تلك الظروف التي رافقت ظهور الديانة المسيحية بشكل جذري وأصبح من المشكوك به فعلاً أن تحصل هيئة الكهنوت (الهراركية) المسيحية على تلك السلطة الهائلة التي عملت على فسادها في المستقبل. ومع أن هؤلاء النسوة السوريات قد أخفقن في مسعاهن هذا، إلا أنهن تستحققن الذكر أكثر من أي امرأة من البطلات التاريخيات اللواتي خُلدت أسماؤهن في التاريخ القديم مثل كليوباتره، أو ما سالينا Massalina. إذ لا تزال صورهن ظاهرة على النقود التي صكت في حياتهن. وإن هدف هذا الكتاب إحياء ذكرى هؤلاء النسوة قدر الإمكان.

كانت إيميسا (حمص القديمة) مسقط رأس كلا الأختين جوليا دومنا وجوليا ماسيا Massea. فهي مدينة ذات أهمية تقع على ضفاف نهر العاصي في سوريا قرب موقع حمص الحديثة.

ويؤلف وادي نهر العاصي الذي ينبع من جبال لبنان الشرقية سهلاً في منتهى الخصوبة والجمال مما جعل الأساطير اليهودية تدعي أنه هو جنة عدن الأصلية. وفي تخوم حمص تقع بحيرة يصب بها نهر العاصي السريع الجريان. ولا تزال آثار تلك البحيرة ماثلة للعيان؛ وعلى رابية صغيرة تطل على المدينة يقع هيكل الإله (إيلاجابال) وهو مشرف على المنطقة. وكان هذا الهيكل أحد مراكز الديانة السامية المقدسة. وكانت أعمدته المذهبة والمثلث (القوصرة) في واجهة المبنى تشهد على النفوذ والتأثير اليوناني في فن العمارة في تلك البلاد التي فتحها الاسكندر المكدوني الكبير. وقد تمتع ذلك الهيكل بمقام واعتبار عظيمين، فكان الحجاج يؤمونه من جميع الولايات الرومانية، ومن الأراضي الفارسية فيما وراء نهري دجلة والفرات. وقد جلب هؤلاء الحجاج الذبائح والقرابين الوفيرة القيمة التي تكدست في الهيكل مع مرور الزمان. وكان الكاهن الأعظم هناك المدعو جوليوس باسانيوس Julius

Bassanius رجلاً غنياً وهو والد جوليا دومنا وجوليا ماسيا المذكورتين. ولما لم يكن له ولد ذكر، فقد كانت هاتان البنتان وريثتيه.

كانت وظيفة الكاهن الأعظم وراثية في هذه الأسرة منذ أقدم الأزمنة. وكانت تشمل سابقاً السلطة المدنية فضلاً عن السلطة الدينية. وكانت حمص مملكة مستقلة ملكها الكاهن الأعظم. ولكن سرعان ما أصبحت بعد عام 66م تابعة لروما بعد أن أخضعها القائد الروماني بومبي أثناء حملته في الشرق. وكان اسم الجد الأكبر الذي حكم تلك المدينة في التاريخ (أي أيام فتوحات بومبي) سامسي سيراموس (شمس عيراموس) وسواء كان هذا الاسم ذا رنة موسيقية أم لأن صاحبه كان ذا شهرة وشخصية لامعة، كل ذلك جعل شيشرون الخطيب الروماني الشهير يطلق هذا الاسم على بومبي ويجعله لقباً من ألقابه، لاسيما وأن بومبي كان يهوى المفاخرة بانتصاراته في الشرق.

توفي سامسي سيراموس Samsiceramus قبل أن ينغمس العالم الروماني في تلك الحرب الأهلية التي سببها اغتيال يوليوس قيصر. ولقد تورط ابنه الذي خلفه في الكهانة في تلك المشكلات، لذلك أعدمه أنطونيوس. ولكن بعد انكسار أنطونيوس في المعركة اكتيوم Actium وإحلال السلم تحت حكم أغسطس الذي اعترف بحق حفيد سامسي سيراموس وأعاد له ما كانت تتمتع به تلك الأسرة من نفوذ، فلا عجب أن نرى ذلك الرجل يطلق على نفسه اسم يوليوس وهذا أحد ألقاب الإمبراطور أغسطس أيضاً. وقد كانت عادة إضافة اسم روماني إلى أسماء الأسرة شائعة بين الحكام الوطنيين في الإمبراطورية الرومانية كاعتراف بالجميل لحصولهم على الرعوية الرومانية.

ولذا نرى أن الكهنة استمروا في الحكم في حمص دون منازع لمدة قرن من الزمان تحت سيادة روما. وكانوا يحتفظون بمركز لا يقل عن مركز المطران الأمير في ألمانيا أثناء العصور الوسطى. وكانوا يتبادلون الزواج مع الأسر المرموقة في المنطقة وقد تصاهروا مع أسرة هيرودوس Herod. ولكن أتى أخيراً ذلك الزمن الذي حدثت فيه بعض الإصلاحات الإدارية في الإمبراطورية الرومانية فانتقلت السلطة المدنية من الحكام الوطنيين إلى الحاكم الروماني في سوريا ولم يبق للكاهن الأعظم في حمص سوى السلطة الدينية، ولكن هذه السلطة وحدها كانت كافية لحصوله على الاحترام والتبجيل والثروة. وهكذا أصبح لكلا ابنتي الكاهن الأعظم جوليوس باسيانوس Julius Bassianus الأمل بالحصول على مهر ضخم عند زواجهما.

كانت جوليا دومنا أصغر البنتين. ولكن لما كان الرجل الذي تزوجها وهو لوشيوس سبتموس سيفيروس قد قدر له بموجب مجرى الحوادث أن يصبح إمبراطوراً في روما، لذلك فقد حازت هذه الابنة على المقام الأول وتفوقت على أختها. ولسوف نستعمل في هذا الكتاب اسم جوليا للدلالة عليها فقط. وأما اسمها الشخصي (دومنا) ففيه مجال للجدل. فهو ليس اسماً لاتينياً في أصله وليس له

علاقة بالكلمة اللاتينية domina أي (سيدة). وقد وجد أحد الأختام في مدينة سيزكس Cyzicus الواقعة على الشاطئ الجنوبي لبحر مرمره، يظهر به الاسم بشكل لقب لإحدى آلهة العالم السفلي. ومع أن مدينة سيزكس Cyzicus تقع على مسافة بعيدة من حمص، إلا أن ذلك الاسم يظهر مناسباً ليطلق على ابنة الكاهن الأعظم لهيكل ايلاجابيل Elagabel. وقد جرت العادة أن يتخذ الإله السوري آلهة قرينة مؤنثة إلى جانبه.

كانت جوليا في قرابة السابعة عشرة عندما اقترن بها سبتموس سيفيروس واتخذها زوجته الثانية، ولكنه قد تعرف عليها قبل ذلك عندما كان متمركزاً في سوريا عام 179م كقائد لفرقة عسكرية رومانية هناك، ولم تكن قد بلغت العاشرة من العمر بعد. ولكن من الأكيد أنها كانت طفلة جذابة، ويظهر ذلك من صورها الجميلة على العملة المسكوكة وعلى الشهرة التي حازت عليها بتمتعها بالجمال الفتان بعد أن كبرت. وهكذا فإن انطباع صورتها وهي طفلة في مخيلته قبل سبع سنوات من زواجه بها، قد أثر فيه بشكل جعله يتقدم لطلب يدها من والدها الكاهن الأعظم بعد موت زوجته الأولى. وأما الابنة الكبرى ماسيا فلم تستطع جذبه إليها أو ربما كانت متزوجة.

وبعد ذلك وعندما أصبح سبتموس سيفيروس إمبراطوراً روت إحدى القصص أنه اختار جوليا لأن خريطة البروج السماوية قد تنبأت لها بأنها سوف تتزوج ملكاً. وكانت تلك الأعاجيب مناسبة لروح العصر. فالتنبؤ قد أتى بعد حادث الزواج. والحقيقة أن الدافع لزواج هذا القائد من جوليا لم يكن سوى ثروة والدها العظيمة، إذ إن الزواج هذا لم يكن في مصلحته كلياً، فقد كان زواجه من ابنة الكاهن السوري الأعظم تحدياً للدوائر المحافظة في روما. إذ كانت تلك الدوائر تستهجن زواج قائد روماني من زوجة شرقية، لا سيما وأن امتزاج الدم السوري قدم فرصة مناسبة للهزء بتلك الأسرة الحاكمة على يد أعدائها. فقد ذلك القائد دون ريب رجلاً طموحاً، إلا أنه كان يتصف بشخصيته الاستبطانية، فقد كان سريع التأثر بالدوافع العاطفية، ولاشك أن ذلك الجو المفعم بأسرار ما وراء الطبيعة الذي صحب مراسم وطقوس الزواج في حمص من نوع راق لمزاجه لاسيما، وأن ذلك الجو قد تجسد في فتاة ذكية ذات جمال آسر ساحر وذات روح معنوية عالية.

كان عمر سبتموس سيفيروس عند زواجه الثاني أربعين عاماً. وكان قد وصل إلى منصب propractor وهو منصب قاض روماني يحكم ولاية رومانية وهي (غالباً) الواقعة في وسط فرنسا، ومركز هذه الولاية مدينة لوجدونوم Lugdunum وهي جدة ليون الحديثة وكان لهذا المنصب أهمية على سلم الوظائف الرومانية الإمبراطورية. ولاشك أن نشاطه ومقدرته هما اللذان رفعاه إلى تلك المراتب التي وصل إليها رغم كونه من أصل عادي؛ فقد كان أصل أسرته من مدينة ليبتس ماجنا Leptis Magna وهي ميناء مزدحم على الشاطئ الإفريقي

لا يبعد كثيراً عن طرابلس الحديثة، حيث ولد في 11 نيسان عام 145م وكان والده من طبقة الفرسان أي من تلك الطبقة الميسورة الحال التي لم تصل إلى درجة من درجات الأرستقراطية بحيث يحق لها دخول مجلس الشيوخ الروماني. وربما كان أصل الوالد من القرطاجنين الذين حكموا تلك المنطقة في سالف الأزمان. وكانت لغته البيتية هي اللغة البونية وهي اللهجة الفينيقية التي كان يتكلم بها أهالي قرطاجنة. وكانت هذه اللهجة سائدة هناك أكثر من اللاتينية. وعندما ذهب سبتموس إلى المدرسة تعلم اللغة اللاتينية واليونانية ولكنه لم يستطع أن يتغلب كلياً على تأخره في تعلم هاتين اللغتين. وعندما أصبح إمبراطوراً كانت لهجته الفينيقية هذه مثاراً للهزء والسخرية ولكن ومع أن لهجته ولفظه كانت تسيء إلى الآذان المرهفة الناقدة حوله، إلا أن لهجته هذه كانت مفهومة أكثر من لهجة أخته. وتروي القصص أن أخته هذه قدمت إلى روما لزيارة أخيها الإمبراطور، فبدأت تتكلم اللغة اللاتينية بشكل سيئ تماماً مما سبب الخجل لأخيها الذي عمد إلى تحميلها الهدايا والتحف لإرضاء عواطفها ثم أرجعها حالاً في أول قارب ذاهب إلى بلدها ليبتس Leptis.

كان سبتموس منذ نعومة أظفاره مهتماً بكرامته. ومع أنه كان قوي البنية، إلا أن طوله كان أقل من الطول المعتاد. ولكنه أثر في أقرانه في المدرسة بقوة شخصيته وكانت إحدى ألعابه المفضلة أن يتخذ دور القاضي بينما يقف الأولاد الآخرون أمامه باحترام يقدمون له شكواهم. وعندما أصبح في العشرين من العمر قدم إلى روما لإتمام دراسته، وبدأ حياته في خدمة الدولة. ثم عاد إلى إفريقية وقد تقلد منصب ضابط في هيئة أركان الوالي الروماني. وقد حدث مرة أن كان سبتموس ماشياً في الشارع في مدينته ليبتس Leptis وكان يمشي أمامه موظف مهمته إفساح الطريق، وهو يحمل الحزيمات وهي مجموعة قضبان محزومة على فأس (وهي من شعارات السلطة عند الرومان) فإذا بأحد أصدقائه القدماء يتعرف عليه ويركض متجهاً إليه لتحيته ومعانقته. فما كان من سبتموس إلا أن دفعه بعيداً عنه وأمر موظفيه المرافقين له باعتقاله وأخذه للجلد، وبعد ذلك أصدر إعلاناً أذاعه منادي المدينة، يحذر به الجمهور من معانقة الضابط الروماني لقاء أشد العقوبات.

ولكن رغم إصراره على نيل الاحترام الذي توجبه له رتبته العسكرية، إلا أنه لم يكن متكبراً ولا متعجرفاً. ففي أثناء حملاته العسكرية كان يقاسم الجنود همومهم ويسير شخصياً مع الجنود ويظهر استعداده التام لسماع شكوى أي واحد منهم. وعندما كان يترأس جلسات المحاكم القانونية كان يصغي بصبر وأناة لأقوال المتقاضين، وباحترام لآراء مساعديه من المستشارين وكان صارم الحكم على نفسه كما كان صارماً مع الآخرين، مراعياً لحقوق كل إنسان في المكان المناسب، ولكنه كان شديد الغيظ من أي اعتداء أو تجاوز على النظام المقرر.

وعندما رحل سبتموس إلى روما لإتمام دراسته عمد إلى التعرف على أبناء عمومته الذين كانوا يعيشون هناك والذين كانوا قد ارتقوا في مدارج الرتب من رتبة الفرسان التي تمسك بها والده إلى رتبة أعضاء مجلس الشيوخ. وقد ساعده هؤلاء بنفوذهم على الحصول على مرسوم خاص من الإمبراطور ماركوس اوريليوس يخوله ارتداء الثوب الروماني الفضفاض الذي يلبسه أعضاء مجلس الشيوخ الذي لا يمكن أن يحصل أحد من دونه على أي رتبة أو درجة في الوظائف الرسمية. وبعد ذلك حصل على عدة مناصب عالية، بما فيها منصبه الذي حصل عليه في بلده في إفريقية. وفي عام 179 وهي السنة التي توفي فيها الإمبراطور ماركوس اوريليوس حصل على أول رتبة عسكرية قيادية وهي قيادة فرقة رومانية عسكرية متمركزة في سوريا حيث قابل تلك الطفلة جوليا كما رأينا والتي قدر لها أن تصبح زوجته الثانية.

لا نعرف الكثير عن زوجته الأولى باسيا مارسينا Paccioe Marcina إلاّ تلك الحقيقة القائلة إنها حملت له بابنتين. وبعد أن أصبح إمبراطوراً وضع لها نصباً تذكارياً في مدينة سيزتا Cizta (وهي مدينة قسطنطه الحديثة في الجزائر). بجانب نصب تذكاري آخر وضعه احتراماً لوالده الذي انتقل إلى سيزتا من مدينة ليبتس Leptis قبل وفاته بقليل. ومن المحتمل أن تكون زوجته الأولى من مواطنات تلك المدينة وأن سبتموس قد قابلها وهو في زيارة لوالده أو عندما رجع من إسبانيا لتدبير شؤونه بعد وفاة والده. ولم يجر لها أي ذكر في مذكراته التي ألفها في أواخر حياته وإن سكوته هذا عن ذكرها دليل على عدم وجود علاقة حميمة بينهما.

وفي أثناء خدمته العسكرية في سوريا كان والي الولاية يدعى هيلفيوس بيرتناكس Hlvius Pertinax وهو رجل في منتصف الخمسينيات من العمر حصل على تقدم سريع مرموق في حياته الإدارية الناجحة إذ إنه كان ابن عبد سابق (فقد كان والده تاجر أخشاب) ثم أصبح الابن معلم مدرسة في شبابه، حتى حصل على مرتبة في الجيش وقد أصبح هو وسبتموس صديقين حميمين. وقد شعر كلاهما بخيبة الأمل وعدم الارتياح عندما توفي الإمبراطور ماركوس اوريليوس وهو في إحدى حملاته إلى حوض نهر الدانوب بعد إصابته بأمراض هضمية وهو في فيينا في 17 آذار عام 180م وبعد أن ترك ابنه كومودوس خليفة له على العرش وهو ولد في الثامنة عشرة من العمر. وقد أظهر كثيرون من مواطني الإمبراطورية حزنهم وامتعاضهم لخرق الإمبراطور للتقاليد القديمة التي ظلت محترمة ومعمولاً بها أكثر من قرن من الزمان وهي تنصيب رجل راشد وناضج ومجرب في منصب الإمبراطور.

حالما استلم كومودوس Commodus السلطة عمد إلى استبدال مستشاري والده القدماء ونزع سلطتهم بتعيين مستشارين من أصدقائه الحميمين. وبعد أن علم كومودوس بوجود مؤامرة تحاك ضده لاغتياله عام 182م بلغت حدة انتقامه

ذروتها. وبمساعدة بيرنيس Perennis أحد المقربين إليه والذي كان يشغل أدق منصب في الإمبراطورية وهو منصب رئيس الحرس البريتوري، قام بإجراء أعنف مظاهر الانتقام ونفذ عملية تطهير واسعة في الشخصيات المرموقة التي كانت تعمل في عهد والده وفي كل من يؤازرهم أو يدعمهم من الرجال. وقد كان بيرتناكس Pertinax وسبتموس من جملة من صب عليهم كومودوس غضبه ولكنهما كانا محظوظين إذ هربا لينجُوَا بحياتهما. فلجأ الأول إلى ضيعته في شمال إيطاليا على حدود غاله السيسلبينية Cisalpine Gaul أما الثاني وهو سبتموس سيفيروس فقد هرب إلى أثينا. وهكذا فقد عين وال جديد في سوريا وقائد جديد للحرس الروماني أيضاً.

عمد سبتموس سيفيروس وهو في أثينا إلى نبذ الشؤون السياسية العامة واكتفى بدراسة الدين وزيارة الأنصاب الأثرية القديمة. وقد كان سبتموس معجباً بتلك الكنوز من الآثار المعمارية والفنية التي كانت تزين تلة الاكروبوليس في أثينا، وإنه عندما أصبح إمبراطوراً بدأ يعمل بحماس زائد عن الحد في بناء المعابد في روما مما أثار عليه موجة من النقد واللوم. وقد كانت إحدى اهتماماته التي لازمته طوال حياته الأفكار والطقوس الدينية والتي كانت جوليا زوجته تقاسمه وتشاطره إياها. ففي أثينا سنحت له الفرصة المناسبة لإشباع وإرضاء تلك الرغبات والاهتمامات، فقد احتفظت تلك المدينة بشهرتها العلمية وادعائها بكونها العاصمة الفكرية للإمبراطورية. قد امتلأ سكانها كما كان عهدهم عند مرور القديس بولس بها قبل قرن من الزمان، بالرغبة في قضاء أوقاتهم في رواية أخبار جديدة أو الاستماع لأخبار علمية جديدة. ولكن لم تكن الأعمال السحرية ولا رؤية الأبنية المعمارية لتعوض عما فقده سبتموس من اعتباره ومركزه السابق. فأهالي أثينا لم يعرف عنهم احترامهم للأشخاص وكانوا معروفين أثناء العصور بسفاهتهم وبذاءتهم. ولهذا فلم يكن باستطاعتهم عمل أي شيء للتخفيف من مشاعره، بل بالعكس كانوا أكثر ميلاً للهزء به من أن يعطفوا عليه، على ذلك الإنسان وذلك الضابط الروماني الذي فقد مركزه وشعر بالإهانة لكرامته واعتباره. وإن مجرد إصراره على الوقوف حفظاً لكرامته، أثارت هؤلاء الناس ضده بوقاحة وجرأة. وقد حنق عليهم وعلى سلوكهم في ذلك الوقت، ولكن لم يظهر عليه أي أثر للحقد فيما بعد عندما أصبح إمبراطوراً وقدم له أهالي أثينا آيات الاحترام والنقوش التي تسبح بحمده وحمد أسرته، والتي اشترك في تدبيجها المجلس الأعلى في الأكروبوليس ولكن ذلك حدث عندما أصبح سبتموس سيفيروس إمبراطوراً وسيداً للعالم الروماني ولم يسعه إلا أن ينسى تلك الإهانات الطفيفة التي لحقت بذلك القائد العسكري المعزول.

ولكن متاعب سبتموس انتهت في عام 185م عندما عزل بيرنيس Perennis خصمه العنيد من منصبه كقائد للحرس البريتوري، وأتى قائد جديد للحرس البريتوري أعاد الاعتبار لجميع أولئك الذين اضطهدهم القائد السابق. وهكذا عين

سبتموس في وظيفة رئيس القضاة في ليجدونوم Lugdunum حيث بقي هناك بعيداً عن المتاعب والاضطرابات التي كانت تحدث في روما والمكائد التي كانت تحاك ضد الإمبراطور. وعندما شعر بالاستقرار تقدم لخطبة ابنة الكاهن الأعظم في حمص.

وسواء تذكرته جوليا عندما كان في أيام طفولتهما يخدم في سوريا أم لم تفعل، إلا أنها قبلته زوجاً لها دون تردد. فالفتاة السورية عليها أن تقبل أي زوج يقبل به والدها. وكان من دواعي سرورها واقتناعها أن اختيار والدها قد وقع على ضابط ذي مستقبل يعمل في خدمة الإمبراطورية الرومانية. نعم لقد كان أكبر منها سناً ولكنه لا يزال في عنفوان حياته وهو أفضل من ولد غير مجرب كان قد تقدم لخطبتها بصفته من أبناء الأمراء المحليين. فلم تشعر بأي غضاضة من الزواج من أجنبي كما تفعل بعض الفتيات اللواتي قد تربين ضمن تقاليد مختلفة. إذ كانت هنالك بعض التقاليد والعادات التي اعترفت بها ديانتها، وهي تقضي أن تقدم كل فتاة قد بلغت سن الرشد نفسها عارية في المعبد وتركع وتسجد على المذبح منتظرة أحد الغرباء لفض بكارتها. وكان هذا واجباً مفروضاً على جميع الفتيات من الطبقات العليا إلى الطبقات الدنيا وإذا رفضت إحداهن الخضوع لهذه التقاليد اعتبرت وكأنها قد تجاوزت حدود الدين والتقوى. فالغريب هذا كان يمثل الإله الذي كانت هي مدينة له ببكارتها.

لقد رأى البعض أن هذه العادة قد أخذت أصولها من مبدأ تباعد الزواج أو الحاجة لإنتاج ذرية صحيحة الجسم بتباعد الدم وتجنب الانحطاط بسبب الزواج من الأقارب، وكان لهذه العادة فائدة أخرى وهي حماية الفتيات غير الراشدات من الاغتصاب، وهو جريمة تعادل جريمة تدنيس المقدسات عندما يسبق من يفعل ذلك الإله في ممارسة امتيازاته.

ومع أن الدلائل المذكورة في العهد القديم تعود إلى فترة من الماضي السحيق في القدم، إلا أن ذلك ظل مطبقاً في تلك الفترة التي عاشت فيها جوليا عندما سادت تلك الطقوس في الديانة السورية. فالإله والآلهة السورية كانوا أرواحاً تسكن التلال والغابات والجداول يعبدها الناس في البساتين والأماكن العالية. وكانت خصوبة الأرض تعتمد على كرم الآلهة وأفضالهم، وكذلك تزايد المحاصيل الزراعية والمواشي والجنس البشري، وكانت الطقوس الدينية عاملاً من عوامل استدرار عطف الآلهة وكرمها. وعندما ولدت جوليا كانت الأوثان تعبد في المروج حيث تسكن جنيات نهر العاصي.

وهنالك مظهر آخر من مظاهر الديانة السورية تكلم عنه العهد القديم واعتبره مكروهاً وهو مظهر تقديم الضحايا البشرية والطقوس التي يحتفل بها المتعبدون بتقديم أولادهم وبناتهم للاحتراق بالنار. وقد بقيت بعض آثار تلك العادة في سوريا

أثناء حياة جوليا. ولكن لم يجر شيء من ذلك أبداً في هيكل إيلاجابل Elagabal حيث كان والدها يمارس وظيفة الكاهن الأعظم، فهذه الأعمال البربرية من قتل الأبناء والبنات قد أدانها الرأي العام فضلاً عن أنها منعت بصراحة في القانون الروماني، الذي جعل هذه الأعمال الشاذة بالنسبة للتسامح تشمل الديانات المحلية، تماماً كما منع الحكام في الهند عادة السوتيه suttee[1] وهي وجوب موت الأرملة عند وفاة زوجها. ومع أنه قد ظلت عادة قتل الكائنات البشرية في الشوارع الخلفية والتضحية بالأطفال إلا أن ذلك كان يتم بشكل سري وخلسة، ولم يكن ليتم في أي معبد أو هيكل رسمي حيث توجد المراقبة الصارمة لطقوسه من قبل السلطات الرومانية.

وقد كشفت جوليا عن أفكارها ووجهة نظرها بالنسبة لهذه المواضيع في كتاب يدعى حياة ابوللونيوس Apollonius والذي كتب بناء على طلبها وتحت إشرافها على يد أحد أصدقائها المدعو فلافيوس فيلوستراتوس Flavius philostatus وهو من الأعضاء البارزين لتلك الحلقة الأدبية العلمية التي كانت ترأسها جوليا عندما أصبح زوجها إمبراطوراً. وسوف نذكر بعض التفاصيل عن هذا الكتاب في فصل قادم. ويكفي في الوقت الراهن أن نذكر أن فيلوستراتوس في محاولته وصف حياة أحد الحكماء المتجولين الذين عاشوا في القرن السابق لعهده، فكان يقصد التعبير عن أفكاره وأفكار جوليا بالنسبة للقضايا الدينية. فهو لا يستحسن حتى قتل الحيوانات لأغراض الضحايا والقرابين، وهو يمدح سلوك الفيلسوف اليوناني ايمبيدوكليس Empedocles الذي جلب تمثالاً مصنوعاً من العجين بشكل ثور وضحى به بدلاً من الثور الحقيقي الذي كانت العادة والتقاليد تقضي التضحية به كقربان. وأما بالنسبة للقرابين البشرية فقد أدانها واعتبرها عملاً يدنس الدين عندما يتوقع الإنسان رضا الإله عن ذلك العمل، بينما إذا كان الإله يستحق هذا اللقب فهو سوف يضرب الكاهن القاتل ضربة تفقده الحياة.

وهنالك تغيرات أخرى حدثت في الديانة السورية وهي تعزى إلى نفوذ وتأثير علوم النجوم الكلدانية التي انتشرت أيام عظمة بابل عبر القرون، حتى وصلت إلى بلدان الشرق المختلفة، وكانت إحدى هذه الأفكار التي صادفت هوى وقبولاً لدى الجماهير أن قدر ومصير الإنسان مرتبط بالنجوم. ويظهر أن جوليا وأصدقاءها كانوا من المؤمنين بهذه الأفكار. ولكن رصد النجوم ومراقبتها أدت إلى الوصول إلى مجالات مثمرة في التفكير، فقد أدت إلى كشف عالم منظم مضيء بعيداً عن مشكلات الأرض وشجعت الإيمان بوجود قوة قاهرة مسيطرة موجودة في كل مكان وزمان تحكم في تلك العوالم السماوية. ولم تكن سوى خطوة

١- السوتيه: إحراق المرأة الهندوسية نفسها في محرقة زوجها المتوفى علامة على إخلاصها له.

قصيرة تم فيها الانتقال إلى الاعتقاد أن تلك العوالم العالية ما هي إلا مكان تأوي إليه الأرواح بعد الموت ولاسيما تلك الأرواح الخيرة التي تستحق القبول هناك. ولكن التعاليم الدينية القديمة لم تكن لتتطرق إلى الحياة بعد الموت، فكان الموتى يذهبون إلى مكان مظلم يقول عنه العبرانيون في سفر أيوب إنه أرض يظهر فيها ظل الموت دون نظام أو ترتيب حيث يكون النور كالظلام. أما الأفكار التي أخذت عن الكلدانيين فقد أبطلت هذه المعتقدات ونفت وجود الكابوس وأصبحت الشمس وهي سيدة النجوم في السماء هي رمز رأس الإله في الأرض، وهي قادرة على قيادة الروح البشرية إلى حيث الهدوء والسعادة بين النجوم.

كانت الديانة السورية تعتقد بتعدد الآلهة بحيث إن كل مجتمع من المجتمعات له حاميه الخاص به، وهو الذي يسيطر على المعبد ولكن لم يكن هنالك أي ميل في سوريا الخلق معبد مشترك لجميع الآلهة التي تتقارب من بعضها في تقاليد أسطورية. ففي الأزمنة القديمة كان المطلوب من إله القبيلة حماية قبيلته وليس أكثر من ذلك، ولم يكن أحد ليهتم بالآلهة الأخرى سوى أن يأمل الناس بانتصار إلههم في أي حرب يخوضها لكونه الأقوى. وهكذا بدأت الحياة المشاعية تتكون في وحدات كبيرة، وقد أصبح هذا الموقف نوعاً من المفارقات التاريخية. وهكذا فقدت المنافسات المحلية أهميتها؛ إذ عندما كانت تنشب الحروب كان العدو أمة بعيدة غريبة وأجنبية في ديانتها ولغتها وعاداتها، وبدأت تتبلور تلك الأفكار وهي أن الآلهة المحليين ما هم إلا مظاهر لروح واحدة وهي رأس الإله نفسه الذي تُعتبر الشمس نافذته الوحيدة وشارته المعروفة.

ولقد تجسدت وجهة النظر في سوريا بإطلاق لقب بعل على جميع الآلهة على السواء، وتعني هذه الكلمة السيد وقد دعا اليهود إلههم (يهوى) بهذا الاسم.

وقد تطورت اختلافات واسعة حول هذا الموضوع بين اليهود والوثنيين الذين كانوا يعتقدون أن هذا الاسم كان يعزز فكرة امتزاج طبائع عدة آلهة مختلفة وإن التمييز بين أي مدينة تحمل اسم بعل وأي مدينة أخرى قد أصبح صعباً مع الزمن. هذا وإن المنافسة بين تلك المدن كانت تشبه تلك المنافسات التي ظلت موجودة حتى هذه الأيام بين مقامات القديسين المسيحيين المتجاورة، حيث يصر أتباع كل مقام محلي على اعتبار قديسهم أعظم قديس وبقاياه أقدس بقايا وأقدس آثار. أما اليهود من جهة أخرى فقد رفضوا الاعتراف أن يهوى كان مساوياً للآلهة المسماة بعل وهذا مظهر من مظاهر الاختلاف، فقد ادعوا أن يهوى هو الإله الوحيد الذي ليس له منافس ولا يسمح بوجود منافس له. وكانوا يعتبرون أن اسم بعل يحمل معنى جديراً بالاحتقار والازدراء ولا يختلف عن أن يكون أحد الأوثان. وهكذا نجد أن التسامح السوري كان الأساس الذي بنت عليه جوليا وخلفاؤها تلك الفكرة القائلة بوجوب إعطاء الإمبراطورية الرومانية ديناً مقبولاً لدى الجميع يشمل كل محسنات المذاهب والأديان المختلفة. وبالعكس كانت المسيحية قد ورثت واعتمدت في قوتها على انعزال وقصور الديانة اليهودية.

ففي الزمن الذي ولدت فيه جوليا كانت عملية الهضم والدمج في المذاهب والطقوس قد قطعت شوطاً لا بأس به. فالطقوس المتبعة في العبادة في صعيد ايلاجابال Elagabal وهو بعل حمص اختلفت قليلاً عن العادات المتبعة في المعابد الأخرى في تلك البلاد فقد ظهرت عدة تفاسير لاسم الإله. فالمقطع الأول من اسم المعبد كان هو الجذر ويعني الإله وهذا الاسم شائع في معظم اللغات السامية ونراه في اللغة العبرية بشكل ايلوهم Elohim وفي العربية بشكل الله (جل جلاله) وربما كان اسم ايلاجابال مشتقاً من الكلمة السريانية (جابال) ومعناه جبل أو تلة. وإن لقب إله التلة أو الجبل يعتبر مناسباً لمقام الإله في بلاد مؤلفة من السهول، وهو يسكن في معبد يطل على المنطقة. وهنالك تفسير آخر وهو أن (جابال) يعني الخالق. فإذا كان المعنى هذا هو الأصل، فإن ايلاجابال تعني «الله الخالق» وإن عمله كخالق يتعارض مع ادعاءات في أن يهوى هو الخالق فقط، وذلك حسب ما ذكر في سفر التكوين. ولكن هذا اللقب لم يكن يعني أي نوع من التحدي بالنسبة للوثنيين فكانوا يعنون به أن ايلاجابال يساهم في تلك القوة الإلهية وهي قوة الخلق.

يمكننا التعرف على الطقوس المعقدة المتبعة في عبادة ذلك الإله من الأوصاف التي وردت عنه في تواريخ متأخرة عندما أنشئ له معبد في روما. فالتفاصيل الرئيسة في هذه العبادة تشترك بها جميع الأديان والمذاهب الشرقية السورية: روعة التجهيزات والأواني المقدسة والأردية المحلاة بالجواهر والتي يلبسها الكهنة، وأصوات المزامير المذهلة التي تشبه النواح وهدير رعد الطبول والغناء المرح والرقص الذي ينتهي في بعض فصول السنة بطقوس شهوانية يختلط فيها الحابل بالنابل ويقصد منها إنماء الخصوبة. وكانت المناظر من هذا النوع مألوفة وموجودة في المعابد في الجوار. وإذا كان هنالك من شيء غير عادي موجود في حمص فهو الشكل الذي كان الإله يظهر به هناك. فهو عبارة عن جلمود من الصخر الأسود وربما كان من أصل نيزكي، وهو مخروطي الشكل وفيه أخاديد وحروف منها ما هو طبيعي ومنها ما هو من حروف سحرية ذات معان غامضة، وإن نسبة صفة القداسة لحجر بشكله الطبيعي لم تكن فريدة في سوريا بل كان لها ما يشابهها في التاريخ القديم. فالآلهة افروديت مثلاً كانت تمثل بحجر كلسي أبيض مخروطي الشكل وذلك في معبدها في مدينة بافوس Paphos في جزيرة قبرص. وغالباً ما كانت شارات الإله في ذلك الزمن تحمل شبهاً للإنسان قد اتخذته من فن النحت. ولكن الإله في معبد ايلاجابال يعتبر غريب الشكل على هذا الصعيد.

وإذا أردنا بحث الدور الذي أدته جوليا في الحياة العقلية لمعاصريها أثناء حكم زوجها، فمن المناسب أن نطرح سؤالاً وهو: إلى أي حد كانت جوليا غارقة في الإيمان بتعاليم كهنة ايلاجابال عندما تركت حمص للزواج من سبتموس سيفيروس ولتعيش كزوجة قاض روماني وحاكم لولاية غاله في مدينة لوجدونوم

Lugdunum. إذ لم تكن قد بلغت السابعة عشرة بعد، فلم تكن سنها لتسمح لها بتطور عقلي ظهر فيما بعد، فقد كانت تحمل في قراره عقلها وتتذكر تلك الطقوس الصاخبة والإثارات العاطفية في الصلاة في ذلك المعبد الذي كانت تألفه وتهواه، كل هذا كان من ذكريات الطفولة ولا ريب أنها قد افتقدت تلك الطقوس واشتاقت لها بعد رحيلها، حالما كانت تحضر الصلوات في معبد أولبر وبقية المعابد في روما. وليس معنى هذا أنها قد ظلت متعصبة لدين آبائها وأجدادها وهي في روما، ولعظمة ذلك الحجر الأسود المعبود في حمص، كلا، إن مثل هذا التعصب كان بعيداً عن ذكاء تلك المرأة الذي ظهر وشهد على حصافتها وعقلها. فقد كانت تهتم بكل جديد من التجارب الدينية التي تعرض أمامها. فالكتاب الذي كتبه صديقها فيلوستراتوس المتناسق مع أفكارها، هذا الكتاب فيه إصرار وتوكيد تام على أن الاحترام واجب لجميع الأديان على السواء. ومن المؤكد أنها كانت تغضب لسماع أي ذم أو استهزاء بالنسبة للطقوس المتبعة في معبد ايلاجابال أو لإله الحجر النيزكي. ولكنها عندما كانت تدافع عن تلك الطقوس كانت تفضل استعمال العقل، تلك الصفة التي يتمتع بها مفكرو هذا العصر الذين يعزون للتقاليد المقدسة معان رمزية. وهذه هي الطريقة التي استعملها الفلاسفة الأفذاذ لاستخلاص بعض التنوير والتثقيف من قصة الإلياذة وهي الطريقة التي تدل على العبقرية التي اتبعها الآباء المسيحيون الأوائل، فقد كانت تلك التفاسير الرمزية تقدم الحرية التامة بالنسبة للبحث عن الحقيقة دون المساس بقدسية الطقوس المقدسة.

وكان على جوليا أن تكيف نفسها وهي في مدينة لوجدونوم Lugdunm بالنسبة لذلك التغيير في مجالات الحياة الأخرى، فضلاً عن المجالات الدينية. فالولايات الغربية كانت متخلفة عن الولايات الشرقية في الثقافة والعلم. فأثناء القرنين الماضيين منذ استيلاء يوليوس قيصر على بلاد الغال بنيت كثير من المدن المجهزة بالأبنية الفخمة. تلك المدن التي اتصلت ببعضها البعض بشبكة من الطرق، بعد أن ساد فيها القانون والنظام لتشجيع التجارة والزراعة. ولكن أسلوب الحياة عند الرومان كان جديداً فلم يكن بالإمكان تبني تلك الأفكار التي توطدت وترسخت في الشرق منذ مئات السنين وورثها الأبناء عن الآباء، تلك التقاليد التي تمثل حضارات الماضي، من الحضارة اليونانية إلى البابلية إلى المصرية. فإن أي فتاة سورية تنتقل لتعيش في بلاد الغال كانت تشبه عروساً زفت إلى ضابط بريطاني، ذاهب إلى إحدى المستعمرات المتخلفة، بينما قد اعتادت تلك العروس حياة المدن الأوروبية الراقية والجامعات والكاتيدرائيات في إنكلترا. فقد كان الفرق واضحاً بين لوجدونوم وحمص، حيث كان معبد ايلاجابال يتمتع بالشهرة كمركز من مراكز العلوم أيضاً. وقد اعتادت جوليا رؤية تلك المناظر المثيرة عند ورود الحجاج من كل حدب وصوب إلى معبد آبائها وأجدادها والذين كان والدها يقوم بإضافة الرجال المرموقين من هؤلاء الحجاج في بيته. وعندما كان هؤلاء

يتنافسون في المواضيع الفلسفية والأدبية والعلمية، كانت جوليا تشترك في النقاش فالفتيات السوريات قد تمتعن بالحرية التي كانت ممنوعة منعاً باتاً في تلك البلدان التي سادت فيها التقاليد والعادات الصارمة.

وكان هنالك عدد من الشؤون والشجون التي استرعت اهتمام جوليا عندما ولد ابنها البكر في لوجدونوم في 4 نيسان عام 188م. وهذا الابن يعرف في التاريخ باسم الإمبراطور كاراكالا Caracalla وقد استخدمت إحدى المرضعات لتربية ابنها وتغذيته ومن الممتع أن نعلم أن تلك المرضعة كانت مسيحية. ولكن جوليا كانت طوال حياتها تتصل بكثير من مؤيدي المذهب المسيحي وتعاملهم برفق وعطف، ولكن رفض المسيحية بالاعتراف أو التسامح مع الديانات الأخرى لم يرق لجوليا، لذلك فقد حافظت على نقائها واستقلال عقليتها.

وفي نهاية تلك السنة انتهت وظيفة زوجها في بلاد الغال، فانتقلت معه إلى روما مع طفلها الرضيع وكانت أفضل وأسرع وسيلة للسفر هي البحر. ولكن سبتموس كان حريصاً على الوجود في روما في يوم رأس السنة عندما كانت تعلن الوظائف الجديدة، وكان ذلك في فصل يصعب فيه السفر بحراً ولم يكن من أحد ليجرؤ على ركوب البحر في ذلك الفصل لا سيما إذا كان مصطحباً زوجته وطفله معه. وقد كان نهر الرون أول مرحلة مأمونة للسفر ويؤلف جزءاً من الرحلة. ولكن بعد نهاية نهر الرون كان من الواجب إكمال الرحلة براً إلى إيطاليا. وكانت الطرق الممتازة التي أنشئت في عهد الإمبراطورية الرومانية أفضل طرق للمواصلات عرفتها أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر. لاسيما أن موظفاً رفيع المقام مثل سبتموس يستطيع الاعتماد على وجود عدة طواقم من الخيول الجاهزة في كل محطة تساعد على سرعة الحركة مع حرس عسكريين لحمايته أثناء الطريق، ثم وجود بعض المواطنين الأغنياء الكرماء الذين يجهزون له مبيتاً في الليل، ليوفروا عليه مشقة النزول في الخانات المزدحمة القذرة، ومع ذلك ورغم وجود كل تلك المحسنات كانت تلك الرحلة محنة قاسية لامرأة قد ولدت حديثاً وهي حامل بالطفل الثاني. ومع أن العربة كانت طويلة وفسيحة ومجهزة بالمقاعد (ويمكن النوم بها عند اللزوم) إلا أن عجلاتها الأربع كانت مغطاة بالحديد، وكانت العربة الخالية من النوابض كثيراً ما تهتز بحركة مفاجئة مؤلمة، ومع كل ما فيها من تجهيزات لم تتجاوز سرعة تلك العربة التي كان يجرها ثمانية خيول، معدل خمسة أميال في الساعة.

وصلت الجماعة روما في الوقت المناسب وهو الوقت الذي كان يجري فيه الاقتراع لانتخاب الموظفين الرسميين في الولايات. وقد كان نصيب سبتموس ولاية صقلية. ولدت جوليا في صقلية ابنها الثاني جيتا gita وبعد ذلك لم ترزق بأطفال وحتى في هذه المرحلة كانت تنتابها أحلام الطموح بالنسبة لمركز زوجها. وقد كتب المؤرخون المعاصرون الكثير عن الحوادث التي رافقت صعود نجم سبتموس. ومع ذلك فقد كانت تلك الحوادث دليلاً على استعداده للإيمان بما سوف

يجلبه الغيب وهي نزعة شجعته عليها زوجته السورية. إذ إن فنون التكهن بالمستقبل كانت منتشرة وسائدة في سوريا، كما تدل تلك القصة التي ذكرناها عن طالع جوليا وأنها سوف تتزوج ملكاً. وهكذا فإن جوليا كانت متفتحة العقل فلم تحتقر مثل تلك الأفكار ومن الممكن رؤية بصمات أفكارها التي كانت واضحة بشكل ملموس أكثر من بصمات أفكاره في التنبؤات المسجلة، لاسيما ذلك الحلم الذي انتابه وهو لا يزال في (لوجدونوم) من أن شخصاً ما قد رفعه إلى مكان عال يطل على مناظر شاسعة من الأرض والبحر، وقد شعر وكأنه يعزف على آلة موسيقية تصدر ألحاناً شجية. وقد كان هذا الخيال جديراً بخيال جوليا الإمبراطورة المستقبلة التي اشتهرت بحمايتها لآلهة الموسيقى.

لقد كان من الخطر على أي إنسان أن يظهر أي اهتمام بالسحر في أثناء حكم كومودوس. وقد وصلت إلى أسماع أولي الأمر في روما أنباء زيارات سبتموس لأماكن السحر في صقلية الأمر الذي أثار حفيظة الإمبراطور كومودوس وقلقه ولهذا فقد استدعي سبتموس إلى روما وحوكم بتهمة التعامل مع السحرة الأمر الذي سوف يوجهه نحو أغراضٍ خيانية. ولكنَّ حُسن الطالع رافق سبتموس في هذه المرة فقد أخلي سبيله وأدين الذين اتهموه وصلبوا. وقد كان مديناً في سلامته لصديقه بيرتناكس Pertinax، صديقه أيام الشباب في سوريا الذي كان قد استعاد مكانته المرموقة لدى الإمبراطور وأصبح في رتبة عريف لمدينة روما، وكان ذلك المنصب الرفيع لا يفوقه إلا مرتبة عريف للحرس البريتوري. فقد كان عريف المدينة مسؤولاً عن سيادة النظام والأمان في الشوارع وتخضع له قوة لا بأس بها من القوات المسلحة وكانت هذه هي الفرق العسكرية الوحيدة التي يسمح بظهورها في المدينة عدا الحرس البريتوري وهم حرس الإمبراطور شخصياً وكان مركزهم في المخيمات في ظاهر المدينة.

لقد تعلم سبتموس درساً بأن يكون حذراً بعد نجاته، فلجأ إلى الهدوء في روما تحت حماية صديقه بيرتناكس Pertinax حيث كان ينتظر وظيفة جديدة لخدمة الدولة. وكان ذلك الوقت وقتاً عصيباً يحتاج إلى الحكمة والتعقل. إذ إنه بعد سقوط بيرنياس Perennis الذي كان سبب العار الذي حل بسبتموس وببرتناكس سابقاً، نقل الإمبراطور كومودوس ثقته وأودعها في أحد العبيد المتحررين المدعو كلياندر Cleander وقد كان عبداً من فريجيا في الزمن السابق. ولكن هذا الرجل الأثير المفضل كان متعجرفاً جشعاً فاكتسب كراهية الجميع الكبار والصغار على السواء، حتى حصل شغب خطير في المدينة بسبب قلة القمح في الأسواق الأمر الذي عزي إلى سوء تدبيره مما أثار الإمبراطور خوفاً وقلقاً، فتخلى عنه وأمر بقطع عنقه. وقد حدث هذا في أوائل عام 190م بينما كان سبتموس لا يزال في صقليه. وفي الأشهر التي تلت كانت روما تعج بالمؤامرات والمؤامرات المعاكسة، وكان كومودوس تواقاً للحصول على بديل لأثيره المفضل وللانتقام لما حدث له بسبب خيبته وخزيه.

وفي خضم هذا الجو الخانق كان الوضع السياسي مقلقلاً، بحيث إن جوليا أصبحت تحلم أحلاماً لا تخلو من نظرات مختلفة بين التفاؤل والتشاؤم بالنسبة لزوجها الذي لا يزال حتى الآن شخصية غير مرموقة. فقد حرص هو وبيرتناكس على التزام الهدوء والحيطة بألا يعرِّضا أنفسهما للاشتراك في النزاع القائم. ولكن يظهر من الحوادث أنهما كانا يتوقان إلى رجوع عهد ماركوس اوريليوس والنظام الذي كان سائداً في ذلك العهد وفي عهد من سبقوه. فقد مضى قرن من الزمان نسيت به روما كيف يحكمها إمبراطور ضعيف، لا يميز بين الغث والثمين ولا يميز بين القوة الجائرة وبين القوة الحكيمة والذي اعتمد في تسيير أمور الإمبراطورية على نصيحة أشخاص حديثي العهد بالسلطة، انتهازيين تنقصهم الكفاءة ولا يشعرون بالمسؤولية مثله بالذات. زد على ذلك فقد أضاف كومودوس خطيئة جديدة إلى فساد الحكم، عملت على إثارة إهانة إلى ذوي العقول التقليدية. فقد كان رجلاً ذا قوة جسمانية خارقة، وكان يهوي القتال بنفسه مع المصارعين والمجالدين والوحوش المفترسة على أرض الملعب. وإن أمر المصارعون والمجالدون بالسماح للإمبراطور بالفوز عليهم، إلا أنه لا يمكن الإيحاء للأسد أو وحيد القرن بذلك. ولكن رجال مجلس الشيوخ الروماني الذين كانوا يراقبون الأحداث لم ترق لهم مهارة الإمبراطور في القتال ولا شجاعته فضلاً عن سلوكه. وقد كانوا على استعداد لمغفرة ذنوبه الإدارية وسوء حكمه، أكثر من إغفال ذلك السلوك المشين بالظهور أمام الجمهور في أدوار لا تليق إلا بالعبيد والمجرمين المحكومين.

وبينما كان الاستياء في تزايد والشكوك والعقاب الأليم ينزل في جميع الساحات، عمد المتآمرون الأقوياء إلى العمل في الخفاء على إعداد الخطط اللازمة. وكان رئيس الحرس البريتوري الذي عين حديثاً وهو اميليوس لاتيوس Amilius latius أحد مواطني سبتموس من شمال أفريقية. وكانت موافقة هذا على المؤامرة تعني أن المتآمرين يستطيعون الاعتماد على كلا القوات المسلحة في روما، فقد كان لاتيوس مسؤولاً عن اشتراك الحرس البريتوري وبيرتناكس عن اشتراك الكتائب المدنية وقوى الشرطة التي كانت تحت إشراف عريف المدينة، زد على ذلك فقد اتخذت الترتيبات للتأكد من أن رجالاً ذوي أفكار معتدلة مناسبة قد اختيروا لإدارة الولايات المهمة التي كان من بينها ولاية بانونيا Pannonia العليا التي تقع على تخوم الدانوب في الأراضي التي تؤلف الآن جزءاً من النمسا السفلى وهنغاريا فيما بين فيينا وبودابست. وقد كانت هذه المنطقة الحدودية ليست سهلة الإدارة فقد كانت مسرحاً لغزوات قبائل بربرية كان ماركوس اوريليوس قد قهرها وشتت شملها. وقد كانت هذه نقطة حساسة بسبب قربها من إيطاليا حتى أصبح بإمكان الفرق العسكرية الثلاث المتمركزة هناك، القدوم إلى روما بالسرعة الكلية أكثر من سرعة أي جيش آخر متمركز في الولايات الأخرى. وكان مركز والي هذه المنطقة الحدودية يناط عادة برجل ذي مقدرة وتجربة ومن المفضل أن

تكون لـه خبـرة فـي أحـوال نـهـر الـدانوب أو الـراين. كانـت مسـاعي الأصـدقاء مـن وراء الستار هي التي جعلت سبتموس يُختار ليكون والياً على منطقة بانونيا Pannonia الحدودية باعتبار أن سبتموس كان يملك الخبرة العسكرية الكافية أثناء وجوده في سوريا.

وكانت الخطة حسب قصة رويت فيما بعد أن يتولى بيرتناكس منصب الإمبراطور بدلاً من كومودوس عندما يحل الوقت المناسب، وبعدها يتبنى سبتموس كابن ووريث له حسب الخطة التي سار عليها الأنطونيون الأوائل، أي أن يكون سبتموس ولي عهد الإمبراطورية. وهكذا تحرك سبتموس وهو مفعم بهذا التصور مع زوجته وولديه في صيف عام 191م لتقلد مهمات منصبه الجديد ونظراً لمنصبه المهم الجديد، استطاع أن يتمتع بالخدمات الممكنة لزيادة سرعة حركته وراحته، ولكن الرحلة استغرقت قرابة الشهر وهي مسافة لا تقل عن 680 ميلاً حول رأس بحر الادرياتيك، ثم الإحاطة بأعلى جبال الألب ثم النزول عبر ما يدعى سلوفينيا Slovenia ويبرغن لاند Burgenland إلى مركز رئاسة الأركان في ولايته في مدينة كارنيتوم Carnutum على الدانوب.

ebook and l.com